

رسالة الجواد العربي



الأخبار

في غضون الشهور الماضية حفل مركز الجواد العربي بعدد من الزائرين المثقفين ومسؤولي المكتبات، في طليعتهم د. مكرم عباس رئيس المركز الفرنسي لدراسات الجزيرة العربية، وديفيد هيرش مستشار مكتبة الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، وخبير المخطوطات صالح الأزهري، وغيرهم. كما أقام المركز حفلاً تذكارياً بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على امتداد عائلة الفرس لطيفة بحضور د. ولتر جورج أولمز الذي سعد بالحفل والكتاب التذكاري وألقى كلمة تاريخية بهذه المناسبة.

إقرأ المزيد صفحة 2 - 15

الثقافة: الفن

نستعرض هنا تحفة فنية إسلامية تصور الخيل وتدريبها وتطبيبها في العصر العثماني، وهي نسخة متحف ولترز للفن من مخطوط (تحفة الفارسين في أحوال خيول المجاهدين) من تصنيف المؤرخ أحمد عطاء طيار زاده (توفي ١٢٩٧هـ=١٨٨٠م)، وتتضمن الدراسة وصف جميع تصويرات المخطوط ومقارنتها بالتصويرات المملوكية، مع التعريج على سيرة المؤلف ونسخ المخطوط في العالم.

إقرأ المزيد صفحة 16 - 21

الثقافة: التاريخ

كانت الخيل وما زالت من هدايا الملوك الثمينة، وممن ضرب في ذلك بنصيب وافر السلطان سعيد بن سلطان آل بوسعيد سلطان عُمان، الذي أهدى للسلطات البريطانية غير مرة جياداً عربية عتيقة أسهمت في توطيد علاقاته وتسهيل مقاصده وغاياته، يطل على ذلك عبر الوثائق البريطانية د. صاحب الندوي بمقالة وثائقية ثرية، ويكتب د. يعقوب الحجي بحثاً نفيساً يتناول مهارات الربابنة الكويتيين في نقل الخيل عبر السفن الشراعية إلى الهند في القرن التاسع عشر، كما نشر الباحث يحيى الكندري مقالةً نقدية للأسطورة التي تربط الأرسان العربية بسد مأرب وتحديداً الرواية التي ذاعت وشاعت عبر كتاب (عقد الأجياد) للأمير الجزائري، ونختتم هذا القسم بمقالة ثانية للرحالة البريطاني ولفرد سكاونت بلنت يتمم لنا فيها حكاية تجربته مع الخيل العربية والسباقات وردود أفعال هواية الخيل في بريطانيا تجاه الخيل العربية في القرن ١٩م.

إقرأ المزيد صفحة 22 - 35

التعليم

ما زالت بعض التفاصيل الدقيقة حول جياد عباس باشا الأول غائبة عنا، بفعل تبدد الأرشيف، وتفرق الخيل في عدة بلدان منذ زمن بعيد، وقد أنار لنا الباحث إدوارد الدحداح زاوية جديدة من هذا البحث، إذ يدرس في مقالته المفيدة وثائق مهمة حول خيل عباس باشا وامتدادها اليوم، خاصة الفرس الدهماء المؤثرة في البرنامج المصري.

إقرأ المزيد صفحة 36 - 43

لطيفة

الفرس العتيق والإرث العريق

الذكرى الثلاثون لعائلة لطيفة

الجواد العربي
الثقافة
التاريخ

قصّةُ الخيل العربيّة
التي أهداها السَّيد سعيد سُلْطان عُمان إلى السُّلطاتِ البريطانيّة دراسة وثائقيّة

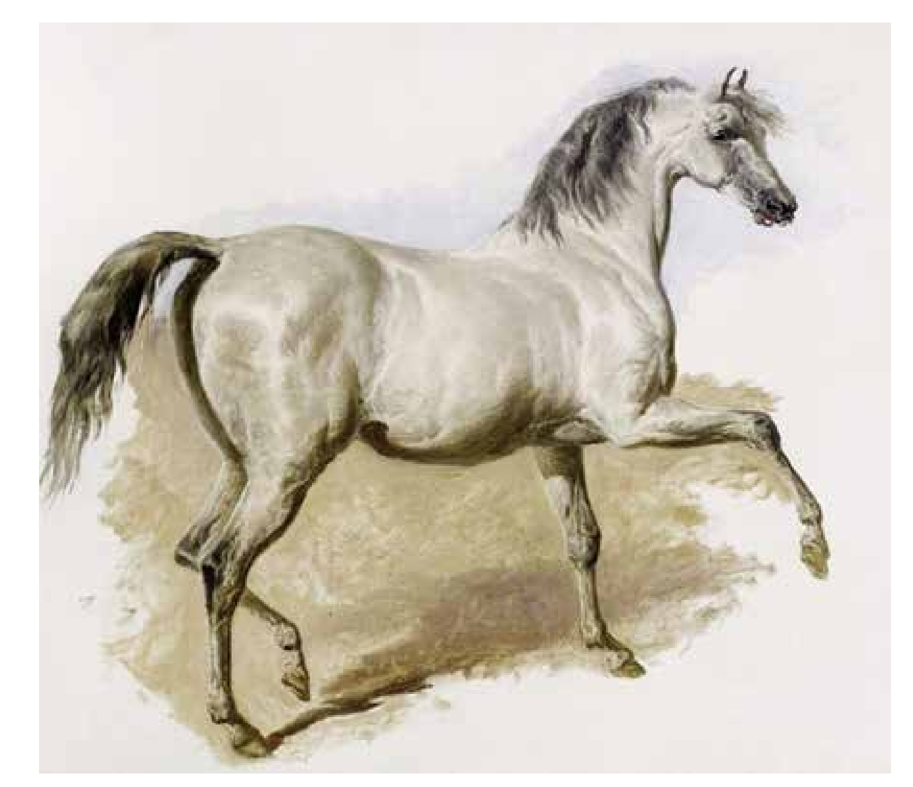
إعداد: د. صاحب عالم الأعظمي الندوي
باحث في تاريخ الهند والجزيرة العربية

كانت الخيلُ من أجمل الهدايا وأغلى النّفائس التي كان الشيوخ في جزيرة العرب والخليج يتهادونها فيما بينهم، وكانوا يرسلونها هديةً إلى حكوماتِ الدول الأوربية وكبار موظفيها وسلطاتها المحلية على سبيل الكرم والودّ والتقدير وإرساء الصلات الطيبة. وعند تتبُّع أخبار الخيل المُهداة إلى الحكوماتِ البريطانية والفرنسية والهولندية وسلطاتها المحلية، يتَّضح لنا أنَّ الهدف من وراء إهدائها إظهارُ الاحترام والتعبير عن الصداقة وحُسن النيّة، كما أنها في بعض الأحيان كانت تُتبَع بطلب أو التماس قضاء مصلحةٍ سياسيةٍ ما، أو تُهدى ردًّا لهديةٍ أُرسِلت من الأطراف المَعنية.

الفحل سعيد مع السائس.

ونستطيع أنْ نقف على أخبارٍ متفرقة عن إهداء الخيل المتبادَلة بين الشيوخ والملوك والشخصيات البارزة في الملفات الوثائقية وفي كُتب الرحالين الأوربيين، بعضها تصلح للبحث فيها ودراستها دراسة مستقلة في ورقة مقالٍ أو بحثٍ، وبعضها الآخر تُقدّم أخبارًا مقتضبة عن الهدية نفسها دون أنْ تتطرَّق إلى قضايا معينة ذات أبعادٍ سياسية أو دبلوماسية، ولكن لا بأسَ أنْ تُوظَّف هذه الأخبار في مثل هذه الأوراق البحثية. ومتى كانت الخيل أحبَّ شيء إلى نفوس الشيوخ فقد كانوا يولون اهتمامًا بالغًا بالخيل المهداة، وتأمين وصولها بصحةٍ وسلامة إلى الوجهاتِ المعنية، وكذلك كان موظفو السلطاتِ البريطانية لا يألون جهدًا في سبيل تأمين الخيل المهداة وتوصيلها إلى المُهدى إليه، ويتّضح ذلك كلَّ الوضوح عند تتبُّع أخبار الخيل المهداة في المراسلاتِ والتقارير المتبادلة بين الجهاتِ الرسمية. ولدينا ملفات وثائقية عديدة تتضمّن مراسلاتٍ وتقاريرَ متنوعة عن تلك الخيل التي أرسلها السَّيد سعيد هديةً إلى الملكة فيكتوريا وإلى السلطات البريطانية، وقد تداول أخبارها العديد من الجهاتِ والموظفين في السلطات البريطانية وتناقشوا حولها في كلٍّ من مسقط وبومباي ولندن، ولكن قبل التطرّق إليها ودراسة مضامينها لعل من المناسب أن نشير هنا إلى أن السَّيد سعيد لم يكن مولعًا باقتناء أنجبِ الخيل العربية وأجملها وأرشقها فحسب، بل كان يحب أيضًا إهداء أجمل خيله وأغلاها إلى أصحابه وأصدقائه وضيوفه، وعمل على إثبات كرمه في كثير من الحالاتِ، وفي الواقع كانت عادةُ إهداء الخيل إلى الشيوخ والملوك والرؤساء الأوربيين متّبعة عند الأئمة والسلاطين العمانيين، ولدينا أخبار متفرقة عن إهداء الخيل إلى السلطاتِ الفرنسية على عهود السلاطين البوسعيديين، فقد أرسل سلطانُ بن أحمد والدُ السَّيد سعيد مجموعة من الخيل في معيّة مبعوثه الشيخ علي في 6 فبراير عام 1803م إلى السلطاتِ الفرنسية بجزيرة موريشس[1].

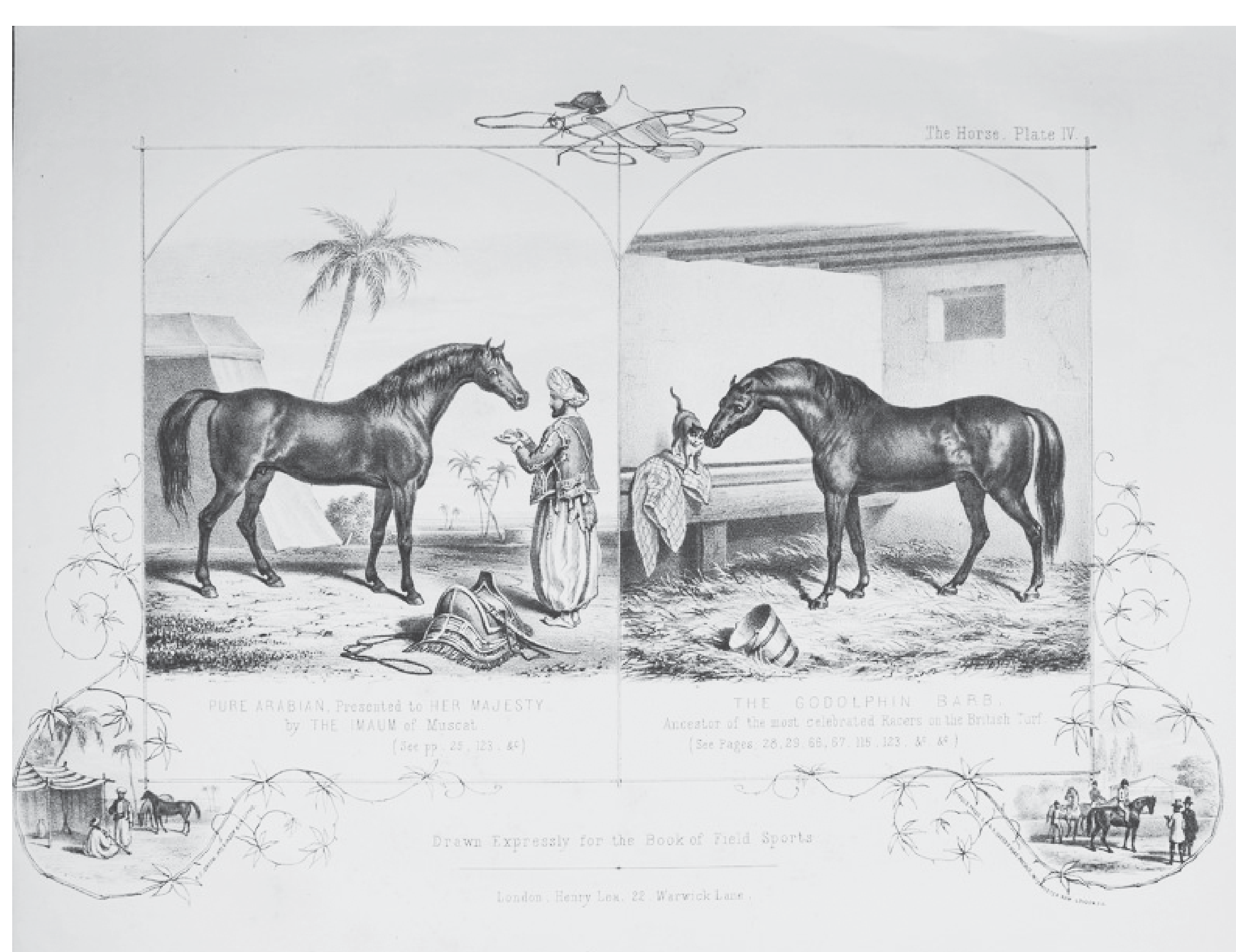
الفرس الزرقاء المهداة



الفرس الزرقاء المهداة



الفرس الرمداء.



من اليمين: الفحل الأدهم، ثم الفحل الكميت.

من اليمين: الفحل الأدهم، ثم الفحل الكميت.

وعلى عهد السَّيد سعيد أُهدِيَت خيلٌ عديدة في مناسباتٍ عدة للسلطاتِ الفرنسية، فقد أرسل أربعة من الخيل مهداة إلى الجنرال ديكان حاكم موريشس في عام 1807م مع مبعوثه السَّيد ماجد بن خلفان[2]، ثُم أرسل خيلًا وحيوانات أخرى هدية لديكان نفسه بصحبة مبعوثه السَّيد عبد القادر آل ماجد في عام 1808م، وكذلك أرسل السَّيد سعيد جوادًا وفرسًا عربيين نجيبين إلى لويس هنري دسولزيه دي فريسينيه حاكم جزيرة لاريونيون الواقعة في المحيط الهندي عام 1821م، كما أرسل جوادين نجيبين للجنرال دفرسنيت بهادر بريونيون في عام 1822م، وفي الواقع أنه أرسل خيلًا عديدة من بين جملة الهدايا القيّمة إلى السلطاتِ الفرنسية ما بين عامي 1837-1825م[3]. وبعد أن عادت العلاقاتُ الدبلوماسية والتجارية ما بين السَّيد سعيد وفرانس خاصةً بعد ما عقَد الطرفان معاهدة للتجارة والصداقة في 17 نوفمبر 1844م[4]، أرسل السلطان سعيد مبعوثًا ومعه ستّ أفراس عربية عتيقة هديةً إلى رئيس الجمهورية الفرنسية في عام 1849م[5].

وكذلك كان السيد يرسل خيله النجيبة هدية إلى أفراد السلطاتِ الهولندية، إذ نقف في كتاب كزافيية بيخان بيلكوك المصور المعنون بـ(عمان في عيون فنانين فرنسيين من القرن السابع عشر إلى القرن العشرين) على لوحةٍ كبيرةٍ مطبوعة على طريقة الحفر صنعَها الرسام الفرنسيّ المعروف (كارل فيرنيه)[6] للجواد العربيّ (علي)، الذي أهداه السَّيد سعيد للسيد البارون كابلين أحدِ النبلاء العاملين بخدمة الملك الهولندي والحاكم العام للهند الكبرى بيتافيا، وهذا الرسم جزء من سلسلة طويلة من الرّسوم للخيل العربية رسمها كارل في عام 1820م في ظلِّ حُكم البوربيين[7].

وفي الواقع، كان السَّيد سعيد لا يفوّت فرص زيارة المبعوثين الأوربيين ليهديَ الخيل الجميلة لملوك البلاد الأوربية ورؤسائها. وكتب السفير الأمريكي إدمنود الذي زار مسقط في عام 1833م بأنَّ السلطان السَّيد سعيد كان متشوّقًا جدًّا لهذه المناسبة لإرسال مجموعة نفيسة من خيله لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت عبارة عن فحليْن وفرسيْن، ولكن لم تسمح الظروف، إذ لم تكن السفينة بالحجم الذي يسمح بحمل الخيل على الوجه المريح والآمن، خاصة أنَّ الأجواءَ العاصفة التي تصادفها السفن عادةً عند مدخل قناة موزمبيق حتى رأس الرجاء الصالح خطيرةٌ للغاية[8].

ومع هذا، فإنَّ السَّيد سعيد أرسل فرسيْن من أفراس السباق النجدية هدية إلى الرئيس الأمريكي مارتن فان بيورين (Martin Van Buren) على سفينته سلطانة في ديسمبر عام 1839م ضمن جملة من الهدايا القيّمة[9]. وقد أُعجِب بهما كلُّ مَن شاهدهما، على أنَّ تلك الهدايا وَضعَتِ الرئيس الأمريكيَّ في موقفٍ حرجٍ؛ ولذا لم يقبلها إلا بعد أنْ أُجري نقاش طويل وحدث الشدّ والجذب بين أعضاء الكونجرس المؤيدين والمعارضين بشأن قبول الهدية، بسبب عدم وجود تشريع يُخوّل للرئيس قبول الهدايا المرسَلة من الدول الأخرى، وبعد مداولة طويلة اتفقوا على إصدار قرار ببيع الفرسيْن والهدايا الأخرى وإيداع حصيلتها في خزانة الدولة، وعُملت الترتيباتُ اللازمة لبيعها بالمزاد العلني، وكانت الخيل تُنقَل كلَّ يوم إلى أرض السباق لعرضها على الراغبين في شرائها لتحسين نسل الخيل الأمريكية، وقد بيع الفرس ذو اللون الأزرق الفاتح بمبلغ 650 دولارًا، وبيع الآخر غامق اللون بمبلغ 675 دولارًا[10].

والحقُّ، أنَّ إهداء السَّيد سعيد للخيل والحيوانات الأخرى لم يكن يقتصر على رؤساء الحكومات الأوربية ووزرائها، بل كان يهديها أيضًا إلى المقيمين والوكلاء السياسيين والموظفين المدنيين وحتى الرحالين والمسافرين الأوربيين، ولدينا رسائل عديدة تفيد بذلك، منها تلك التي أرسلها النقيب همرتن الوكيل السياسيّ البريطانيّ في زنجبار في 19 مايو عام 1841م إلى السَّيد سعيد، التي ذكر فيها وصول الخيل المهداة من السَّيد وكتب يصفها: وصلتْنا الخيل إلى البيت، وهي خيل مهيبة[11]. ويتَّضح من رسالته الأخرى أنَّ السَّيد

سعيدًا أهدى إليه جوادًا خاصًّا، فقد أرسل همرتن رسالته في 28 يناير عام 1844م إلى الحاجّ أحمد بن نعمان محرر السَّيد سعيد يشكره فيها على وصول هدية الجواد الأصفر من السَّيد سعيد[12]، وكذلك كان من عادة السَّيد سعيد تجهيز جميع الرحّالين الزائرين لأراضيه بالخيل هديةً من مربطه، ولا شكَّ أن هذا يدل على كرمه وسخائه[13].

وعند تتبُّع أخبار هدايا السَّيد سعيد إلى الحكومة البريطانية وسلطاتها المحلية يتبيّن لنا أنه بالَغ في ذلك، وما كان يترك فرصة إلّا ويرسل فيها هدايا قيّمة وثمينة للغاية، منها بالدرجة الأولى الخيل المهداة إلى الجهاتِ المَعنية، والسؤال المطروح هنا: هل كان يفعل ذلك على سبيل الكرم والسخاء والجود فحسب، أم كان وراء ذلك تحقيق أهداف ومصالح أخرى؟ لدينا أربعة ملفاتٍ وثائقية تتضمن تقارير عديدة عن الخيل المهداة، ومراسلات متبادلة ما بين السَّيد سعيد وأفراد الحكومة البريطانية وإدارة الشركة البريطانية الشرقية وحكومة بومباي وموظفي السلطات البريطانية المحلية في مسقط وزنجبار وعدن.. منها ملفّان يتعلَّقان بالخيل المهداة إلى الملكة، في حين تُناقِش مضامين الملفيْن الآخريْن موضوعَ الخيل المهداة إلى رئيس مجلس إدارة الشركة، على أنَّ مضامين خطابات ذينك الملفيْن متطابقة أشدَّ التطابق، وأغلب الظن أنهم وضعوا نسخةً أخرى لتلك المراسلاتِ والخطاباتِ في ملف مستقلٍّ وتحت رقم خاص[14]، وعلى كلّ حال، فإنَّ مضامين تلك الخطابات والتقارير تعالج شتّى الموضوعات السياسية والدبلوماسية، فضلًا عن فتور العلاقاتِ ما بين الوكيل السياسيّ والسَّيد سعيد، والمناقشات التي دارت حول ذلك ما بين الوكيل السياسيّ في زنجبار وعدن وموظفي السلطاتِ البريطانية في حكومة بومباي ومجلس الإدارة لشركة الهند الشرقية في لندن، على أنَّ تلك الموضوعات -خصوصًا الفتور والتوتر في العلاقات بين الأطراف- لا يمكن فهمها حقَّ الفهم واستعيابها حقَّ الاستيعاب دون التطرق لموضوع تجارة الرقيق، وموقف كلٍّ من السَّيد سعيد والسلطاتِ البريطانية منها.

إذ إنَّ التساؤلاتِ التي يطرحها هذا المقال في ضوء مضامين ذينك الملفيْن الوثائقييْن هي في المقام الأول: لماذا أفرط السَّيدُ سعيد في إرسال الهدايا الثمينة ومنها الخيل في المقام الأول إلى ملكة بريطانيا وزوجها، ورئيس مجلس الإدارة لشركة الهند الشرقية في لندن، مع أنَّ الهدايا التي كانت تُقدَّم له في المقابل من تلك الجهاتِ لم تكن في أغلبها على المستوى نفسه من حيث القيمة والطرافة؟ ما الأسباب التي أدَّت إلى وقوع الفتور والوحشة في العلاقاتِ ما بين السَّيد سعيد والوكيل السياسيّ في زنجبار؟ لماذا أرسل السَّيد سعيد الخيل المهداة إلى رئيس مجلس الإدارة في لندن بيد النقيب كوجان دون الرجوع إلى السلطاتِ البريطانية المحلية في زنجبار؟ لماذا لجأ السَّيد سعيد إلى النقيب كوجان لتحقيق مصالحه السياسية والدبلوماسية عند الحكومة البريطانية ومجلس الإدارة مع أنه لم يعُد نقيبًا أو موظفًا في السلطات البريطانية بدلًا من الاعتماد على القنواتِ الشرعية لتحقيق مآربها المتنوعة؟ هذه وغيرها من التساؤلاتِ سنحاول البحث فيها والإجابة عنها في الصفحاتِ الآتية.

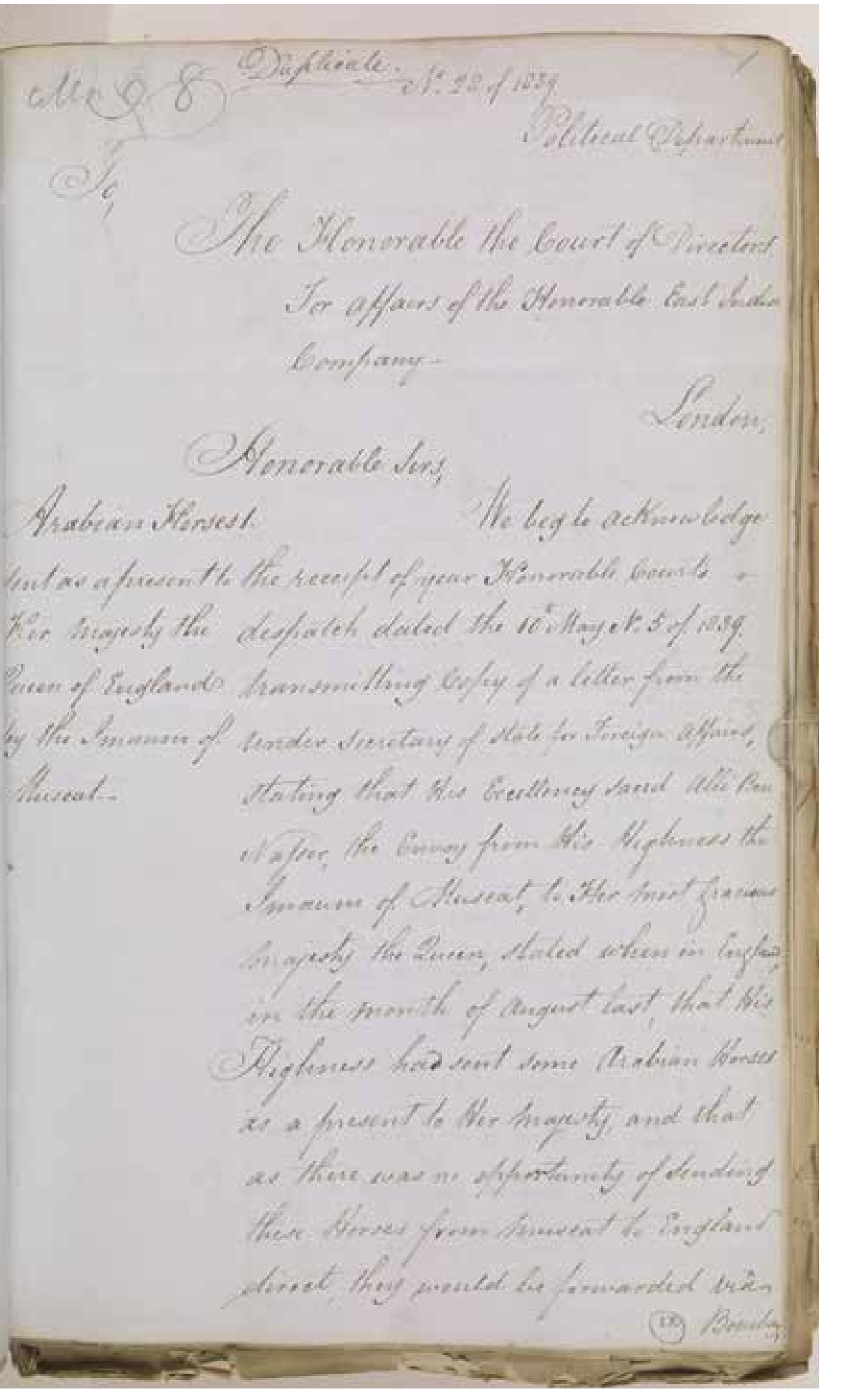
لقد شارك السَّيد سعيد ورجاله وتجّار بلاده من العرب والهنود في تجارة السلع التجارية الهندية وشرق أفريقيا، شاملةً تجارة العاج والعبيد التي ازدهرَت ازدهارًا كبيرًا في زنجبار وما حولها منذ العقد الثاني من القرن التاسع عشر الميلاديّ، وكان العبيد يُصدَّرون إلى دول الشرق الأوسط وجزيرة العرب والخليج وإيران والهند فضلًا عن الدول الأوروبية[15]. وقد أرسل دوق جلوستر رئيس المنظمة الأفريقية مذكرة إلى مجلس إدارة شركة الهند الشرقية في 21 مارس عام 1821م وحثَّ فيها الشركة على التدخّل في وساطتها القوية مع السَّيد سعيد من أجل حظر تجارة الرقيق، وكان على السَّيد سعيد أنْ يتعاون مع السلطاتِ البريطانية كلَّ التعاون في مسألة حظر بيع الرقيق لأيِّ أُمَّةٍ مسيحية، ومع ذلك لم تُشدِّدْ عليه السلطاتُ البريطانية في حظر تصدير الرقيق إلى الدول العربية والإسلامية[16].

على أنَّ الفرنسيين وجدوا ساحةً فارغة لتفعيل تجارة الرقيق في زنجبار وما حولها، وقد وصلتْ أخبارهم إلى حاكم موريشيوس الذي أرسل خطابًا إلى الوكيل السياسيّ فيرفاكس مورسبي في زنجبار في الرابع من أبريل عام 1821م، طالبًا فيه تقديم تقرير عن وضع تجارة الرقيق التي يقوم بها الفرنسيون ما بين زنجبار وبوربون، وبعد المعاينة والتفتيش كتب



صورة الجواد علي، الذي أهداه السيد سعيد للبارون كابلين، أحد النبلاء العاملين بخدمة الملك الهولندي.

الفحل الكميت.


Duplicate. No. 20 of 1839
Political Department
To
The Honorable the Court of Directors
For affairs of the Honorable East India Company
London.
Honorable Sirs,

Arabian Horses sent as a present to Her Majesty the Queen of England by the Imaum of Muscat.

We beg to acknowledge the receipt of your Honorable Court's despatch dated the 10th May No. 5 of 1839, transmitting Copy of a letter from the Under Secretary of State for Foreign Affairs, stating that His Excellency Saeed Allee Bin Nasser, the Envoy from His Highness the Imaum of Muscat to Her most Gracious Majesty the Queen, stated when in England in the month of August last that His Highness had sent some Arabian Horses as a present to Her Majesty and that as there was no opportunity of sending these Horses from Muscat to England direct, they would be forwarded via Bombay

رسالة من جانب حكومة بومباي إلى مجلس الإدارة بشأن الخيل المرسلة من طرف السيد سعيد إلى ملكة إنجلترا عام 1839م.

موريسبي في تقريره أنَّ الفرنسيين غارقون في تجارة الرقيق، ويرتكبون أبشع الجرائم في المنطقة لاختطاف الزنوج والسيطرة عليهم، ويقتلون كلَّ مَن يقف في طريقهم ويقاومهم[17].

ولما كانت السلطاتُ البريطانية ترى أنَّ السَّيد سعيد ضالعٌ مع الفرنسيين في تجارة الرقيق، كتب فاركوهار إليه في العاشر من مايو عام 1821م بأنَّ السفن الفرنسية قد غادرت من زنجبار وعلى متنها نحو أربعة آلاف من الرقيق تجاه بوربون، واستفسر منه عن هذا الموضوع، وفي ضوء مضامين تلك الرسائل المتبادلة، يرى باحثون أنَّ الموضوع ضخّمته السلطاتُ البريطانية عمدًا بهدف لفت الانتباه؛ ومن ثَمَّ إيجاد ذريعةٍ للتدخل العسكريّ البريطانيّ. ومن ناحيةٍ أخرى يرى أولئك الباحثون أنَّ خسائر السَّيد سعيد من حظر تجارة الرقيق مما ذكرَها موظفو السلطات البريطانية في تقاريرهم ورسائلهم بالغوا فيها أيضًا بهدف إثبات أنَّ السَّيد سعيد -مع أنه حظر تجارة الرقيق- ضالعٌ في تلك التجارة تحت الستار للتعويض عن الخسائر المتكبدة[18].

ومن أجل تقنين مسألة حظر تجارة الرقيق، أبلغ الوكيلُ في زنجبار الحاكمَ العامَّ للهند في كلكتا في مستهلّ شهر أكتوبر عام 1821م أنه من الضروريّ إقناع السَّيد سعيد بتوقيع اتفاقية جديدة؛ وذلك بهدف توجيهه للتعامل مع التجار التابعين له بحزم وعزم في مسألة تجارة الرقيق، والأهمّ من كلِّ ذلك كسب تعاون زعماء السكّان الأصليين في إجبار فرنسا أيضًا على التخلّي عن تجارة الرقيق، وقد أعدَّت السلطاتُ البريطانية مسودة الاتفاقية بعد الاتفاق التامّ ما بين المقيم فاركوهار في موريشيوس، ومونتستوارت إلفينستون الحاكم العام للهند في بومباي بهدف إخضاع السَّيد سعيد للسياسة البريطانية[19]. وهكذا فقد وافق السَّيد سعيد على توقيع الاتفاقية الجديدة تحت تلك الضغوطاتِ السياسية والدبلوماسية، وقد أثنى المقيم فاركوهار وإلفينستون على السَّيد إثر تنفيذ تعليماتِ الحكومة البريطانية وجامِلوه، وأرسلوا إليه رسالة تقديرٍ لسياسته المستنيرة السمحة[20].

وعلى كلِّ حال، جرَت تلك الاتفاقية في 7 سبتمبر 1822م وتعهَّد فيها السَّيد بحظر بيع الرّقيق على النصارى، ومن هنا فإنه من الصعب قبول رأي بعض الباحثين بأنه بمقتضى تلك الاتفاقية حظر السَّيد سعيد تجارة الرقيق في جميع أراضيه[21]، وأصدر أمره إلى كلِّ مسؤوليه في كافة أنحاء الأراضي التابعة له أنهم إذا وجدوا صاحبَ أيِّ مركب عربيّ ينقل العبيد بغرض بيعهم إلى أيِّ دولة نصرانية فعليهم إلقاء القبض عليه ومعاقبته، ثُم سمح الإمام لاحقًا في 10 سبتمبر 1822م للنقيب مرسبي بأنْ تقوم سفن الحرب البريطانية بالقبض على أيِّ مركب عربي مُحمَّل بالرقيق يوجد في المنطقة الواقعة ما بين الشرق من رأس دلجادو، وحتى المنطقة الواقعة على بُعد ستّين ميلًا شرق سوقطرة[22].

على أنَّ هذا الأمر لم يقتصر على تلك الاتفاقية، بل بدأت السلطاتُ البريطانية تضغط عليه فيما بعد لفرض الحظر الكامل على تجارة الرقيق في جميع أراضيه، ففي 17 ديسمبر عام 1839م طلبَت السلطاتُ البريطانيةُ منه الموافقة على إضافة ثلاثة بنودٍ أخرى للاتفاق الذي عقدَه النقيب مرسبي في يومي 7 و10 سبتمبر 1822م، واتفقوا في هذا الصَّدد على مزيدٍ من التشديد على حظر تجارة الرقيق في المحيط، من المراقبة والتفتيش ومعاقبة الجناة إلى غيرها من المواد[23]. ثُم حصل الملازم هينيل، المقيم السياسي في الخليج من السَّيد سعيد في مسقط على توقيع ثلاث موادّ أخرى فيما بعد في 17 ديسمبر 1839م لإكمال اتفاقية مورسبي عام 1822م التي تحظر تجارة الرقيق[24].

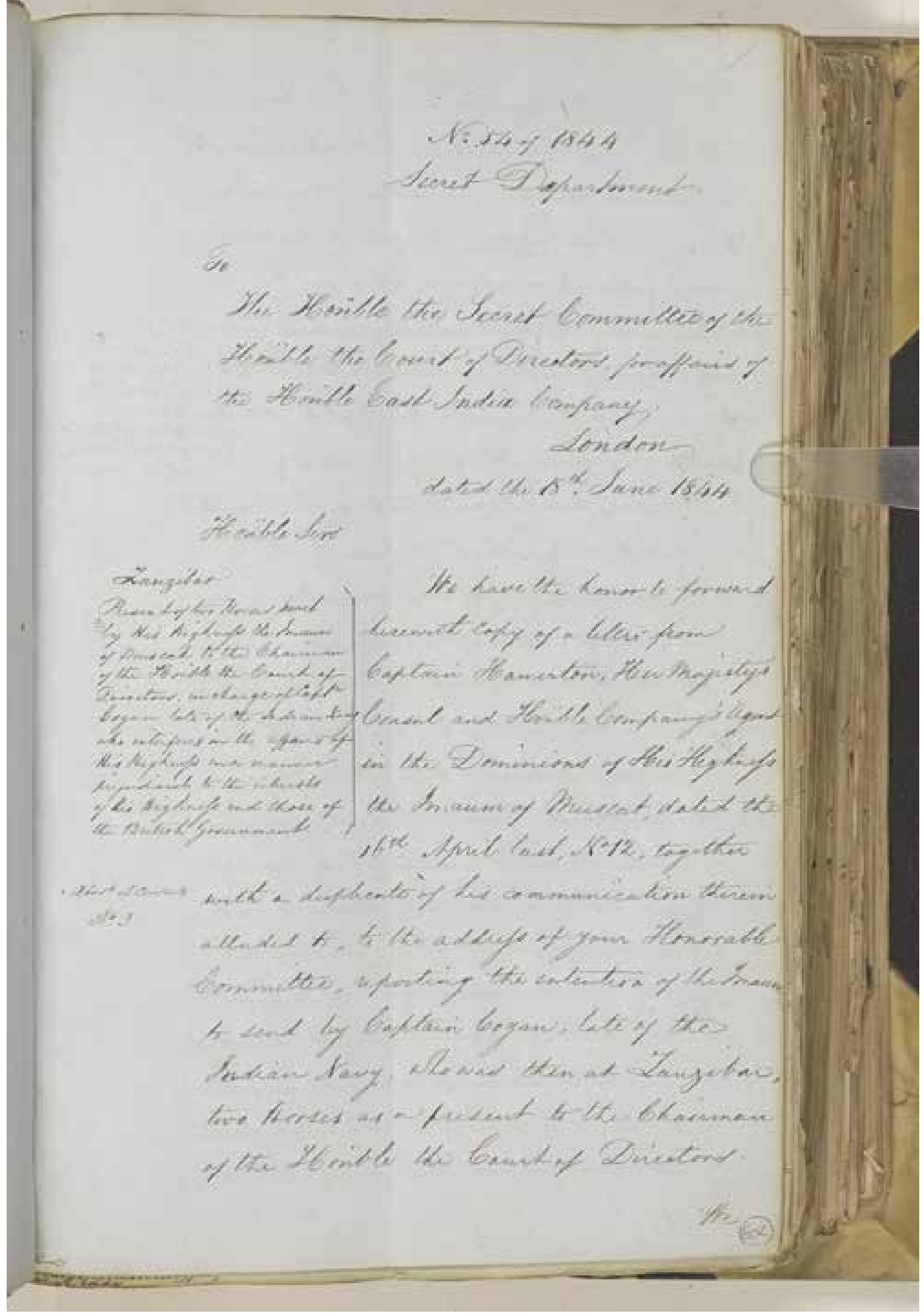
وهكذا، فقد رأى السَّيد سعيد أنه من الضروريِّ إعادة النظر في علاقته السياسية والتجارية بالدولة البريطانية وكسب ثقة كبار الدولة وودّهم لأجل تخفيف حِدَّة حزم الحكومة البريطانية في الحظر على تجارة الرقيق في جميع أراضيه، ولعلَّه استوعب مغزى مطالباتِ السلطات البريطانية من وراء إضافة المواد في الاتفاقية، وأن هدفها منه الحظر الكامل على تجارة الرقيق في أراضيه، فقدَّم سفينته الغالية ليفربول وبها أربعةٌ وسبعين مدفعًا هدية منه إلى التاج البريطانيّ، وأبحر بها النقيب كوجان عام 1835م على أنها هدية شخصية للملك وليم الرابع، وكان معها كذلك عدد من الخيل من أنجب الأرسان العربية، وبعد وصول تلك السفينة إلى إنجلترا غيَّر الملك وليم اسمها إلى (إمام) تحيةً للمُهدي[25].

ثُم أرسل السَّيد سعيد سفارته برئاسة سفيره سعود عليّ بن ناصر مع الهدايا القيمة في شهر أغسطس عام 1838م، إلّا أنَّ تلك السفارة لسببٍ ما لم تستطع اصطحاب الخيل التي خصَّصها السَّيد للملكة، على أنَّ السفير المعني أخبر السلطاتِ البريطانية في لندن بموضوع إرسال تلك الخيل لأنها لم تكن على علمٍ بها، فقد أُرسِلت عبر ميناء بومباي ووصلتْ إلى إنجلترا بعد عدة أشهر، وبموجب كلام السفير العماني بلغ حكومة بومباي خطابٌ من مجلس إدارة شركة الهند بلندن يستفسر فيه عن مصير تلك الخيل المهداة من السَّيد سعيد إلى الملكة.

ليس في الملف المعنِيّ نسخة لخطاب مجلس الإدارة، إلّا أنه يتبيّن من مضمون جواب حكومة بومباي إلى مجلس الإدارة أنَّ الأخير كان يجهل موضوع تلك الخيل المهداة[26]. وبموجب خطاب المجلس تواصلتْ حكومة بومباي مع آغا محمد رحيمي وكيل السَّيد سعيد مستفسرةً منه عن مصير تلك الخيل[27]، وفي اليوم التالي وصله خطابٌ من آغا محمد رحيمي يخبره بأنَّ تلك الخيل المهداة للملكة شُحنت بالفعل على سفينة (هيغينسون)، «وأودُّ أنْ أخبركم أنَّ هذه هي الخيل التي أشار إليها مبعوث سموّ إمام مسقط في زيارته الأخيرة إلى البلاط الملكيّ في إنجلترا»[28].

ويتَّضح من خطاب حكومة بومباي أنَّ جميع السلطاتِ تحرَّكتْ بشأن هذا الموضوع، فوكيل وزارة الشؤون الخارجية أيضًا أرسل خطابًا إلى المجلس الذي أرفقه بخطابه المرسل إلى حكومة بومباي[29]، وعلى كلٍّ، وبعد ما استوثقتْ حكومة بومباي من أمر الخيل وشحنتْها إلى إنجلترا كتبتْ خطابًا مفصّلًا ردًّا على خطاب مجلس الإدارة في لندن، وذلك بتاريخ 17 يوليو وأرفقتْ به خطابَي كلٍّ من ويلبي وآغا، واختتمتْ خطابها بالقول: «ويتبيَّن من ردِّ الشيرازي على خطاب ويلبي أنَّ الخيل التي أشار إليها مبعوث صاحب السموّ -وهي فرسان ومهر- قد نُقلت بالفعل

خطاب النقيب همرتن الوكيل السياسي في زنجبار، إلى المحرّر العامّ لحكومة بومباي ليستوك روبرت في 14 سبتمبر عام 1840م بشأن الخيل الأربعة التي أرسلها السيد سعيد إلى الملكة هدية.


No. 54 of 1844
Secret Department
To
The Hon'ble the Secret Committee of the Hon'ble the Court of Directors for affairs of the Hon'ble East India Company,
London
dated the 18th June 1844
Hon'ble Sirs

Zanzibar

We have the honor to forward herewith copy of a letter from Captain Hamerton, Her Majesty's Consul and Hon'ble Company's Agent in the Dominions of His Highness the Imaum of Muscat, dated the 16th April last, No. 12, together with a duplicate of his communication therein alluded to, to the address of your Honorable Committee, reporting the intention of the Imaum to send by Captain Cogan, late of the Indian Navy, who was then at Zanzibar, two horses as a present to the Chairman of the Hon'ble the Court of Directors

رسالة من حكومة بومباي إلى اللجنة السرّية لمجلس الإدارة في لندن بشأن الخيل التي أرسلها السيد سعيد في معية كوجان إلى رئيس مجلس الإدارة.

على متن سفينة هيغينسون التي غادرتْ بومباي في الرابع من شهر مايو الماضي»[30].

ويبدو أنَّ السَّيد سعيد أرسل أربع جياد أخرى من زنجبار إلى الملكة عبر بومباي في عام 1940م، كما يتبيّن من خطاب النقيب همرتن الوكيل السياسي في زنجبار، فقد بعث الأخير بخطابه إلى المحرّر العامّ لحكومة بومباي ليستوك روبرت في 14 سبتمبر عام 1840م، وكتب فيه أنه يُرفق خطابًا (وهو غير مُدرَج في هذا الملف) لإرساله إلى اللورد بالمرستون وزير الدولة للشؤون الخارجية، وذلك بموجب طلب صاحب السمو إمام مسقط، وأنَّ الخطاب يتعلَّق بالجياد الأربعة التي أرسلها الإمام إلى الملكة فيكتوريا هديةً، إلّا أنَّ ذلك الخطاب لم يُرسل مع الخيل بسبب سهو مُحرِّر الإمام[31]. على أننا لا نعرف على وجه التحقيق أكانت تلك الخيل أُرسِلت في معية سفارة أم أُرسِلت في رعاية حكومة بومباي؟

وقد أسفرَت سفاراتُ السَّيد سعيد وهداياه الغالية إلى كبار رجال الدولة البريطانية عن نتائج طيبةٍ وآثارٍ محمودة، فسرعان ما تبعَت الخطوة الدبلوماسية الثانية للعلاقاتِ الإنجليزية الجديدة مع السَّيد سعيد، وذلك بعد ما عقدت في 31 مايو 1839م في زنجبار اتفاقية تجارية بين صاحبة الجلالة البريطانية وبين سموّ إمام مسقط، بواسطة النقيب روبرت كوجان المفوّض من طرف حكومة بومباي، وكانت الاتفاقية تتضمَّن نحو سبع عشرة مادة، منحت تلك الاتفاقية أرضية خصبة لحرية تبادل الاتصالاتِ والتجارة والإقامة والامتيازات التجارية

رسالة الوكيل السياسي هينز في عدن إلى حكومة بومباي يفيد بوصول كوجان مع الخيل على متن سفينة السَّيد من زنجبار.

إلخ، على أنَّ المادة الثالثة عشر كُرّرَت لتجديد اتفاقية عام 1822م لقمع تجارة الرقيق وحظرها التامّ في الأراضي التابعة للإمام وجميع الأمم الأوربية، وبموجب هذه الاتفاقية التجارية عُيّن قنصل بريطاني على أنْ يكون وكيلًا سياسيًّا ومستشارًا للشؤون السياسية لبلاط السَّيد سعيد[32].

على أنَّ تلك المادة الخاصة بالحظر التامِّ على تجارة الرقيق أصبحَت مصدر قلق واضطراب للسيد سعيد؛ إذ كانت تجارة الرقيق منبعًا وافرًا للدخل لديه، وكتب كيرزون أنَّ دخلَه بلغ نحو ثمانين ألف جنيه إنجليزي سنويًّا، وكان رُبع ذلك الدخل من تجارة الرقيق قبل أنْ تُلغى هذه التجارة بالاتفاق مع الحكومة البريطانية[33]. ولكن السَّيد سعيد لم ييأس وتابَع محاولاته في إقناع السلطات البريطانية بالتراجع عن القرار، وفي الوقت نفسه بدأ يتملَّص من تنفيذ قراراتِ تلك المادة كلّ التنفيذ، ولأجل ذلك نراه يرسل سفارة ضخمة في قيادة مبعوثه عليّ بن الناصر، ومعها هدايا فخمة وثمينة بمناسبة تولية الملكة العرشَ في عام 1842م، وكانت تلك الهدايا عبارة عن عقدين من اللؤلؤ، وزمردتين، وحلية مصنوعة مثل التاج، وعشرين شالًا كشميريًّا، وصندوق فيه أربع زجاجات من ماء الورد، وأربعة أفراسٍ عربية نجيبة [34]. وكتب الرحّالة جيمس ويلستد بأنَّ الملكة تلقَّت هدايا كثيرة بتلك المناسبة، إلّا أنَّ هدايا

السَّيد سعيد كانت أغلى ثمنًا وأعلى قدْرًا لإرضاء مشاعرها، فقد قُدّر ثمن تلك الهدايا بنحو خمسين ألف جنيه إسترليني[35].

ولأنَّ السَّيد سعيد كان يعرف مدى الخسارة التي سيتكبَّدها إذا وافق على الحظر الكامل على تجارة الرقيق؛ أرسل تلك السفارة لتوضيح هذه المسألة مُطالبًا الحكومة البريطانية بتحديد التعويض المناسب عن الخسائر المالية المتوقَّعة، ومن أجل تحقيق تلك الغاية أرسل تلك الهدايا الثمينة للملكة، غير أنَّ الحكومة البريطانية ظلّت حازمةً كلَّ الحزم بشأن مسألة حظر تجارة الرقيق، دون النظر في أيِّ حيثياتٍ وتعويضاتٍ اقترحها السَّيد سعيد[36].

ومن المفيد في هذا المقام أنْ نذكر أن النقيب روبرت كوجان (Robert Cogan) (المتوفى 1847م) أصبح حلقة وصلٍ بين السَّيد والسلطاتِ البريطانية، خصوصًا بعد ما فقد السَّيد الأمل في السلطاتِ المحلية وفي الوكيل السياسيّ في تحقيق مطالبه السياسية، فقد جعله السَّيد قبطانًا لسفينته ليفربول، وشغل منصبه ذلك حتى عام 1840م إلى أنْ جعله السَّيد مستشارًا سياسيًّا ودبلوماسيًّا[37]، وفي الوقت نفسه تقريبًا، وبموجب اتفاقية عام 1839م، عُيّن النقيب أتكينز همرتن (Atkins Hamerton) قنصلًا بريطانيًّا ووكيلًا سياسيًّا في زنجبار[38].

وكانت العلاقة بين السَّيد سعيد وهمرتن طيبة للغاية في بداية الأمر، على أنَّ همرتن كان

رسالة كوجان إلى رئيس مجلس الإدارة بشأن وصوله إلى لندن وأحوال الخيل المهداة إلى الرئيس.

يعرف تمام المعرفة بأنَّ السَّيد سعيد -انطلاقًا من الرؤية بأنَّ تجارة الرقيق مؤسسة قديمة ومربحة للغاية لقاطني المنطقة التابعة له- يجتهد كلَّ الجهد في ترويجها وترسيخها، إلا أنَّ همرتن بدأ يضغط عليه بشتى الوسائل لحظر الاتجار في الرقيق حظرًا كاملًا وفي جميع الأراضي التابعة له، وهنا دبَّ الخلاف بين الطرفيْن وأصيبَت علاقتهما بالفتور والتوتر، وقد يكون لكوجان دورٌ في توسيع فجوة الخلاف وفي إثارة التوتر بينهما، وهذا الخلاف يظهر أيضًا من بعض رسائل همرتن المرسلة إلى السَّيد سعيد، ومنها تلك الرسالة التي بعثها همرتن في 7 أغسطس عام 1844م، وذكر فيها أنه سمع أنَّ النقيب كوجن تكلَّم في عدن بأنَّ السَّيد سعيد لا يرغب في رؤية النقيب همرتن لحِدّة مزاجه وخشونة طبيعته، مما جعل همرتن متكدر المزاج، وشرح في رسالته تلك موقفَه وقدَّم الاعتذار إنْ كان قد بدَر منه شيء كرهه السَّيد سعيد[39].

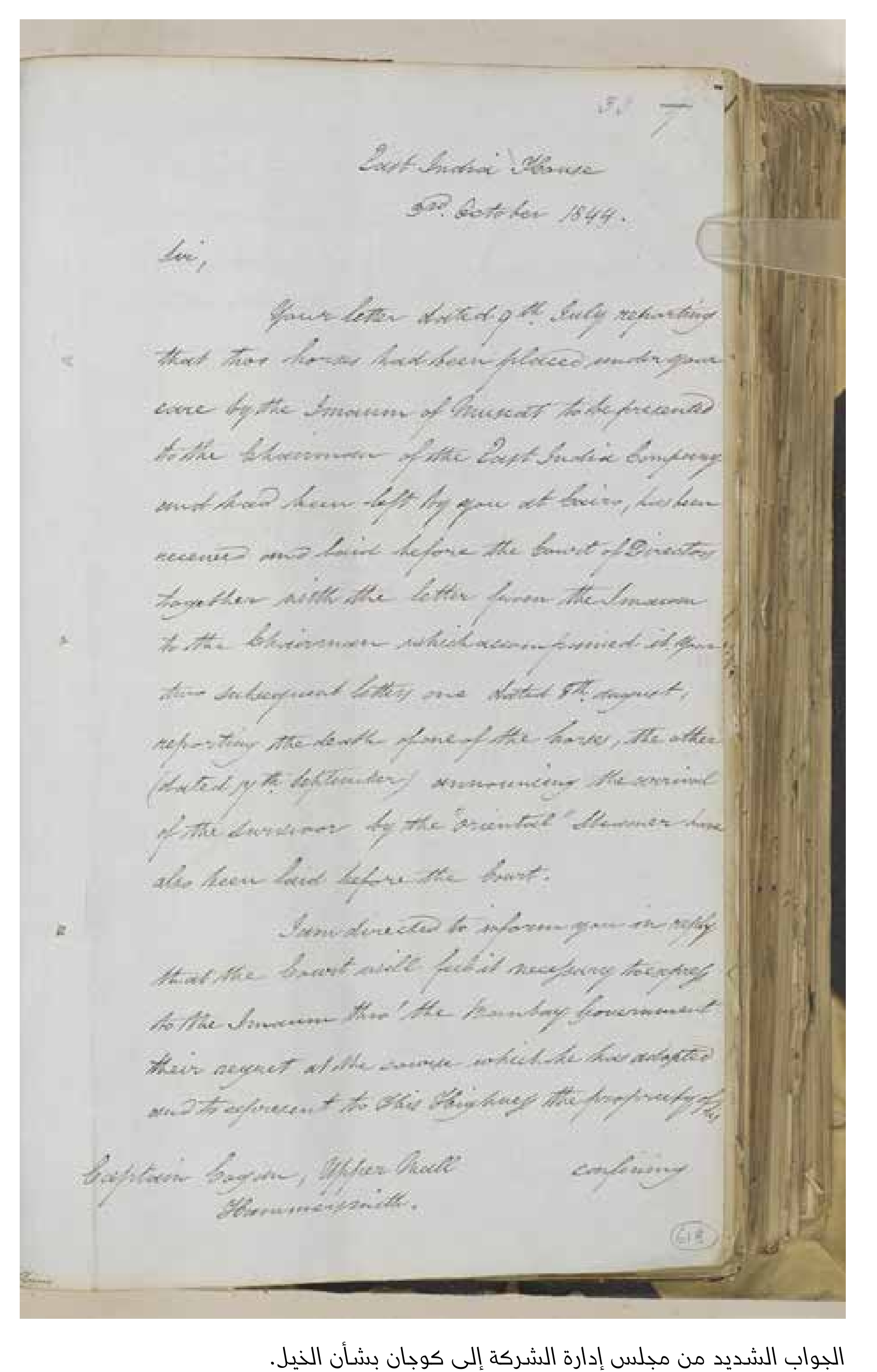
والظاهر أنَّ النقيب كوجان نجح في إقناع السَّيد سعيد بأنه يستطيع تحقيق أهدافه السياسية، وحلّ مسألة الحظر الكامل على تجارة الرقيق بفضل علاقته الوطيدة بالسلطاتِ المحلية في الخليج وبومباي والسلطات في لندن، وذلك دون اللجوء إلى الوكيل السياسيّ في زنجبار، ويمكن القول أيضًا بأنَّ السَّيد سعيد حينما فشل في تحقيق مصالحه ومطالبه

رسالة الجواد العربي
الإصدار الثالث 2022 - عدد 50

السياسية بواسطة همرتن الوكيل السياسي في زنجبار، اعتمد على كوجان كلَّ الاعتماد لذلك، وجعله يتولّى شؤونه الخارجية المتعلقة بالحكومة البريطانية.

ولعلَّ كوجان هو الذي اقترح على السَّيد سعيد إرسال جوادَيْن هديةً إلى جون شيفرد (John Shepherd)، رئيس مجلس إدارة الشركة البريطانية في لندن في معيّته دون الرجوع إلى الوكيل السياسيّ الذي اشمأزَّ من ذلك القرار واحتجَّ أمام السَّيد سعيد، وكتب احتجاجه ذلك في خطابه المرسَل إلى اللجنة السرّية لمجلس الإدارة في لندن في 13 أبريل عام 1844م[40]، ثُم دافَع همرتن عن نفسه في مسألة توتُّر العلاقاتِ بين الطرفين، وكيف أنه حاول تحسين العلاقات مع السَّيد سعيد كلما وجد إلى ذلك سبيلًا، فقال: «وأودُّ أنْ أخبركم رسميًّا أنَّه قبل وصول النقيب كوجان إلى هنا في يناير الماضي، كانت علاقتنا أشدَّ وأقوى وقائمة على الثقة المتبادلة، إلّا أنني لاحظتُ تغييرًا ملحوظًا فيه وفي بلاطه تجاهي، وقد حصل ذلك بعد وصول النقيب كوجان تقريبًا...[41].

ثُم وضّح همرتن حقيقة العلاقاتِ بين الطرفيْن، والأسباب التي أدَّت إلى ظهور الفتور والوحشة في علاقته بالسَّيد سعيد، وكيف أنه كلما كان يفاتح السَّيد في موضوعِ حظرِ تجارة الرقيق يشمئزّ قلبه ووجدانه بذِكر هذا الموضوع، وإذا راجعه في مسائل أخرى إذا هو يستبشر بذلك[42]. إلى أن اِختَتَم رسالته بقوله: «وأودُّ أنْ ألفت نظر لجنتكم الموقرة إلى أنَّ


East India House
3rd October 1844.
Sir,
Your letter dated 9th July reporting that two horses had been placed under your care by the Imaum of Muscat to be presented to the Chairman of the East India Company and had been left by you at Cairo, has been received and laid before the Court of Directors together with the letter from the Imaum to the Chairman which accompanied it. Your two subsequent letters one dated 5th August, reporting the death of one of the horses, the other (dated 9th September) announcing the arrival of the survivor by the "Oriental" Steamer have also been laid before the Court.
I am directed to inform you in reply that the Court will feel it necessary to express to the Imaum thro' the Bombay Government their regret at the course which he has adopted and to represent to His Highness the propriety of confining
Captain Cogan, Upper Mall
Hammersmith.

الجواب الشديد من مجلس إدارة الشركة إلى كوجان بشأن الخيل.

العديد من تلك المحادثات قد قيّدتها في تقاريري ورسائلي السابقة المرسلة إلى الحكومة التي أبلغت صاحب السمو بها، إلّا أنَّ جوهر مضامين تقاريري لم يخلص إلى سموه على الوجه المطلوب والصحيح»[43].

وليس خافيًا أنَّ همرتن وضّح تلك المسائل لحكومة بومباي لأنه تابعًا لها، فقد وقفتْ حكومة بومباي بجانب همرتن في أزمته الدبلوماسية في زنجبار وساندَت شرعيته، وأرسلَت رسالة مُفصَّلة بتوقيع كلٍّ من ج. هـ. كروفورد، وإل آر ريد، في 18 يونيو عام 1844م إلى اللجنة السرّية لمجلس الإدارة في لندن، وبيَّنَت للأخير الأضرار والمفاسد التي لحقتْ بالعلاقة بين الطرفيْن بسبب وجود كوجان في دربار السَّيد وتدخُّله في الشؤون الخارجية[44]، ثُم أثنوا على همرتن وبيَّنوا موقفه من السَّيد، وقدَّروا محاولته لتحسين العلاقاتِ بين الأخير والحكومة البريطانية وتقويتها، مع الإفادة بأنَّ كوجان هو مَن يعكّر صفوها[45]، ثُم طالبوا من مجلس الإدارة دعم همرتن ومساندته بالسلطة الكاملة والشرعية السياسية والدبلوماسية لتحقيق مصالح الحكومة البريطانية والقضاء على نفوذ كوجان قضاءً تامًّا [46].

والغريب في أمر السَّيد سعيد أنه كان يريد إرسال ذينك الجوادَيْن الأَزْرَقَيْن هديةً إلى رئيس مجلس الإدارة، ولكن دون الرجوع إلى الوكيل السياسيّ في زنجبار، وفي الوقت نفسه أراد

أنْ تصل تلك الهدية بسفن الحكومة البريطانية بيد شخصٍ غير مُخوّل رسميًّا عند السلطاتِ البريطانية! وعلى كلٍّ حينما أرسل السَّيد تلك الخيل عن طريق كوجان إلى عدن وقدَّم قائد سفينته رسالة السَّيد إلى ستافورد بيتسوورث هينز (Stafford Bettesworth Haines) الوكيل السياسي هناك، كتب الأخير خطابًا إلى حكومة بومباي يفيد بوصول كوجان مع الخيل على متن سفينة السَّيد من زنجبار، وأخبرها بالعوائق التي حالتْ دون تنفيذ طلب السَّيد سعيد[47].

وقد أسرعَت حكومة بومباي بخطابها بعد مناقشة الموضوع ومداولته مع الحاكم العامّ إلى الوكيل هينز في عدن، ومنعتْه من تحمُّل تلك المسؤولية على عواتقه والحكومة، وكتب تاونسند مُحرِّر حكومة بومباي فيه: «طلب مني معالي الحاكم في المجلس إشعاركم بتسلّم رسالتكم المؤرّخة بتاريخ 19 من الشهر الماضي، كما طلب مني أنْ أبلغكم بأنَّ ذينك الجوادين المذكوريْن اللذين أشرتُم إليهما في رسالتكم، هما هدية من صاحب السموّ إمام مسقط إلى رئيس مجلس الإدارة الموقّر، على أنهما تحت مسؤولية النقيب كوجان ورعايته، ومن ثَمّ فإنه يقع على عاتقه اتخاذ الترتيبات اللازمة لنقلهما إلى وجهتها، وذلك لأنه قد تولّى مسؤولية نقلهما مستقلًّا عن الحكومة وقنواتها الشرعية»[48].

ولا ريبَ في أنَّ حكومة بومباي اتخذَت تلك الخطواتِ بمقتضى الأخبار التي وصلتْها بخطابات

خطاب السيد سعيد إلى جون شيفرد، رئيس مجلس الإدارة بشركة الهند الشرقية في لندن بشأن الخيل المهداة إلى الأخير.

همرتن الوكيل السياسيّ في زنجبار، ولم تكتفِ بمنع الوكيل السياسيّ في عدن، بل أرسلت خطابًا إلى مجلس الإدارة في لندن تخبره بأنها منعَت الوكيل السياسيَّ في عدن من تحمُّل تلك المسؤولية[49]، وهكذا لم يتمكّن السَّيد سعيد من إرسال ذينك الجوادين بسفن الدولة البريطانية، واضطرّ كوجان لاصطحابهما معه إلى مصر بغية إرسالهما، أو اصطحابهما معه من هناك إلّا أنه فشل مرةً أخرى واضطرّ لتركهما عند بعض معارفه في القاهرة.

وحينما وصل كوجان إلى لندن خاليَ اليدين أرسل خطابًا إلى رئيس مجلس الإدارة، وأرفق به أيضًا خطاب السَّيد سعيد الموجَّه إليه، وكتب في خطابه ذاك يقول: «لقد وصلتُ إلى لندن على متن السفينة البخارية ليفربول الكبرى ودخلتُ الحَجر الصحيَّ، إلا أنه من الضروريّ أنْ أنقل إليكم الرسالة المصاحبة من صاحب السموّ إمام مسقط، وقد طلب مني الإمام أنْ أتولّى مسؤولية نقل هذا الخطاب وإيصال جوادَيْن من الخيل العربية لرئيس شركة الهند الشرقية، وذلك عند مغادرتي لزنجبار في أبريل الماضي، وقد اصطحبتُهما معي بأمان إلى القاهرة إلّا أنني خفتُ من الإرهاق والتعب الذي كان سينجم في حال اصطحابهما عبر الصحراء من القاهرة إلى الإسكندرية، لأنه سيؤدّي بنا إلى المخاطرة؛ ولذلك اضطررتُ لتركهما في القاهرة في حفظ وتأمين لحين يأتي الوقت المناسب لنقلهما إلى إنجلترا

بسفينة البريد، ومع معرفتي بأني لستُ مُخوّلًا أو مرتبطًا بالخدمة في الحكومة، إلا أنني حينما وُليتُ من مجلس صاحب السمو الإمام، طُلب مني بوجه خاصٍّ أنْ أُعبِّر لكم عن ارتباطه الصادق بحكومة صاحبة الجلالة ومجلس إدارة الشركة، وتَوْقه الشديد نحو ازدياد تلك الصداقة وترسيخها ويتطلَّع منها إلى الخير والإحسان»[50].

ولأنَّ الملف المَعنيّ لا يتضمَّن النسخة العربية لخطاب السَّيد سعيد، فقد اضطررتُ لترجمة خطابه المترجم عن العربية، كتب السَّيد ذلك الخطاب في 8 أبريل 1844م لرئيس مجلس الإدارة، ومن المستحسَن أنْ نضع هنا النصَّ الكامل لذلك الخطاب للفائدة: «بعد التحية والسَّلام والتقدير الكبير، كنتُ أفكر منذ مدةٍ في كتابة رسالة ودّية لكم حتى أُعبِّر لإدارة الشركة المعظمة ومجلسها الموقّر عن مدى مشاعر ارتباطنا بحكومة الهند، ونحن دائمًا نُقدِّر كلَّ التقدير اهتمامكم بنا وما تقومون به من إحسان وخير لنا، ونرجو من الله أنْ تستمر هذه العلاقاتُ الطيبة وتزيد الثقة فيما بيننا، ونأمل منكم تفضُّلًا الإفصاح لنا عمّا يختلج في خواطركم حيالنا وإفادتنا بذلك بكلِّ أريحية ودون أدنى تردُّد، ولأنَّ صديقنا النقيب كوجان بصدد العودة إلى إنجلترا فقد اغتنمتُ هذه الفرصة ووضحتُ له كلَّ ما يدور في خاطري حول علاقتنا الطيبة بالحكومة الهندية البريطانية، ولعلكم ترغبون في معرفة أحوالنا، ولذلك طلبتُ منه أنْ يُطلِعكم بوضوح على حقائق أحوالنا وأوضاعنا. وقد طلبنا منه أيضًا أنْ يتولّى مسؤولية اصطحاب زوجٍ من أجود عائلات الخيل العربية وأنجب أرسانها هديةً لكم منا، ونأمل من معاليكم قبول هذه الهدية المتواضعة، وسنشعر بالفخر والسعادة بتنفيذ أوامركم وتلبية جميع طلباتكم وحاجاتكم الكبيرة والصغيرة على حدٍّ سواء. من الواثق بالله عبده، سعيد بن سلطان، زنجبار، 8 أبريل 1844م »[51].

وانتظر كوجان الردَّ من رئيس المجلس دون جدوى، ومن سوء الحظّ نفقَ أحدُ الجوادَيْن في القاهرة وقتذاك، ولما بلغ خبر نفوقِه كوجانَ كتب خطابًا آخر لرئيس مجلس الإدارة في 8 أغسطس يخبره فيه عن ذلك الحادث، ويطلب منه التحقيق في سبب نفوقه لكي يُبرّئ نفسه من أيِّ تهمة، والظاهر أنه أرسل مع خطابه ذاك إفادة بنفوق الجواد وصلتْه من القاهرة، فكتب يقول: «سيدي العزيز، أودُّ أنْ أخبركم بأني وبسبب انشغالي في ترتيب بعض الأمور لم أتمكّن من إفادتكم بخبر نفوق أحد الحصانين المؤسف في القاهرة، التي أهداكم إياهما صاحب السمو إمام مسقط، وآمل منكم تدقيق الأوراق الخاصة بحادث نفوقه، وسينقشع منه غبار الشكّ فيما يخص قلقي عن الاحتياطاتِ التي دبّرتُها في القاهرة بشأن رعايتهما، وستقنعكم بما جرى للجواد النافِق، وإني متيقّن كلَّ اليقين أنَّ الجماعة التي تركتُ عندها تلك الأمانة فعلوا كلَّ ما بوسعهم لرعايتها والاحتفاظ بها، وكان السَّيد تيبالدي شاهدًا على ذلك وهو رئيس لإحدى شركاتِ الشحن، وهو صِهرٌ للسيد ثوربورن هنري أبوت (Thurburn Henry Abbot)، وهو طبيب وجرّاح إنجليزي قضى سنواتٍ عديدة في القاهرة، ويحظى باحترام وإجلال كبيرَيْن في تلك المدينة»[52].

السلطان

ويتبيَّن من خطابه هذا أنه لمّا لم يتمكّن من ترتيب توصيل الخيل بسفن البريد لجأ إلى إحدى شركاتِ الشحن في مصر، إلّا أنَّ الجماعة التي ترك عندهم تلك الخيل في القاهرة لم يقدروا على اللحاق بالسفينة التي كان من المفترض إرسال الحصان الناجي بها، وقد أشار كوجان إلى ذلك في الخطاب نفسه فيقول: «ويؤسفني غاية الأسف أنَّ الجواد الناجي لم يُرسَل بالباخرة التي وصلتْ إلى هنا مؤخرًا، وإنه من دواعي السرور أنْ أنتظر وصوله إلى هنا، على أنني التمس منكم إفادتي بأنه يجب أنْ أخاطبكم رسميًّا بهذا الخصوص»[53].

بيدَ أنه لم يبلغه أيُّ ردٍّ من رئيس المجلس أو إدارتـه، ولكن حينما وصل الجواد الناجي من القاهرة إلى لندن وجد كوجان فرصةً سانحةً للتواصل مع رئيس مجلس الإدارة للشركة من جديد، فكتب خطابًا مُفصَّلًا في 17 سبتمبر عام 1844م إليه، وكرَّر فيه مضامين الخطابيْن السابقيْن مع ذِكر سبب موت الحصان في القاهرة، فيكتب في مقالته الختامية: «سمعتُ بأسف أنَّ الجواد نفَقَ بسبب الإصابة بالتهاب الأمعاء في القاهرة في يوليو الماضي، أمّا الجواد الثاني فيسعدني أنْ أخبركم بأنه وصل بصحةٍ وسلامة على متن باخرةِ أورينتال البريدية، وسأشعر بالتكريم لتلقّي أوامركم بصدد الجهة التي ستستلم مسؤولية الحصان المذكور حتى أفيد سمو الإمام بذلك، ويشرفني أنْ أكون خادمكم المطيع»[54].

وفي نهاية المطاف، بلَغَهُ الجوابُ الشديد من مجلس إدارة الشركة بقلم السير جيمس كوزمو ميلفيل، الذي شغل منصبَ المُحرّر الأخير لشركة الهند الشرقية في لندن، وبخلاف الآداب المراعاة لدى السلطات البريطانية في كتابة الرسائل والخطاباتِ، يخلو هذا الجواب من أيِّ تحية وسلام وكلماتِ الشُّكر والتقدير في نهاية الجواب، على أنَّ جيمس ذكر فيه ملخّصَ مضامينِ خطاباتِ كوجان، واختتمه بذِكر موقف رئيس مجلس الإدارة من تصرُّفات السَّيد سعيد طالبًا من الأخير إجراء جميع اتصالاته بالقنواتِ الحكومية الشرعية فحسب، وهذا الطلب وحدَه كان كافيًا لهدم مكانة كوجان لدى السلطاتِ والدوائر الحكومية في لندن والهند، فكتب يقول: «وقد عرضنا جميع تلك الخطاباتِ على مجلس الإدارة، وبموجب التوجيهات من المجلس المعني فيما يتعلّق بالردِّ عليكم أبلغكم بأنَّ المجلس يرى أنه من الضروريّ أنْ تبلّغ حكومةُ بومباي الإمامَ طلبَ المجلسِ بشأن المسار الذي سلكه، وأنْ تُوضّح لسموّه أنه من المناسب أنْ يحصر كلَّ مراسلاته مع المجلس بالقنواتِ الرسمية لحكومة بومباي ووكيلها المعتمد، وطُلب مني أيضًا أنْ أضيف أنَّ رغبة المجلس في تفادي ما قد يعتبره سموُّه، وعلى نحوٍ خاطئ على أنه دلالة على عدم الاحترام يحوُل وحدَه دون إعادة الهدية المعنية إلى الإمام»[55].

لم يكتفِ مجلسُ الإدارة في لندن بإرسال ذلك الخطاب إلى كوجان فحسب وإنما أرسل خطابًا مفصّلًا فيما بعد إلى حكومة بومباي وبتوقيعات الأعضاء الرئيسيين في المجلس، وذلك بتاريخ 27 نوفمبر عام 1844م، وأرفقوا بذلك الخطاب جميع الخطابات والمراسلات التي جرت بين كوجان والمجلس: «نرسل إليكم الآن نسخًا من ثلاث رسائل وردَتْ إلينا من النقيب كوجان عن موضوع الخيل، فضلًا عن رسالة الإمام المرسَلة إلى رئيسنا من النقيب نفسِه، كما أُرفِـقُ لكم ردّنـا عليه مما طلبنا من مُحرّرنا توجيهه إلى النقيب كوجان». وأَيَّدَ المجلسُ ذلك الاقتراح الذي قدّمتْه حكومةُ بومباي في خطابها المرسل إلى المجلس بشأن تعزيز سلطة همرتن الشرعية في زنجبار، فاستهل في خطابه هذا قائلًا: «لقد لفتَ انتباهنا في رسالتِك المرسَلة إلى اللجنةِ السّرية بتاريخ 18 يونيو عام 1844م إلى رسالةِ النقيب همرتن الوكيلِ السياسيّ في زنجبار، التي تفيدُ بأنَّ الإمام يعتزم إرسال جوادَيْن هديةً إلى رئيسِنا بواسطة النقيب كوجان، وأنت تقترح بإرسال الردّ الوافي للإمام مما يقوّي التأثير الشرعيَّ للنقيب همرتن عنده، وفي الوقت نفسِه يقضي على الآمال التي تـراود سموّه بشأن تلك الأهـداف والغاياتِ المخبوءة في قلبه، ممّا يأمل الإمام تحقيقها بإجراء الاتصالاتِ مع السلطاتِ الداخلية عبرَ القنواتِ غير الشرعية»[56].

كما كتب فيه المجلس مبيّنًا موقفه الواضح من مسألة قبول الهدايا وحقيقة العلاقات بين الطرفين، فضلًا عن تدوين توجيهاته الصارمة بصدد الاعتماد الكلي على السلطات المحلية لإجراء الاتصلات به وبالسلطات البريطانية: «ونُوجّه بإبلاغ الإمام بأنَّ حكومة بومباي وممثلها المعتمَد هما الوسيطُ المعيّنُ لإجراء جميع الاتصالاتِ بين سموّه والمجلس، وأنه نظرًا لعلاقتنا الطيبة واحترامنا الكبير لسموّه تجاوزْنا تصرفاته تلك، وقبِلْنا هديته وأرسلْنا إليه إفادةً بذلك، إلّا أننا نأمل منه أنْ تُحصَر مراسلاته في المستقبل مع جميع السلطاتِ بالقنوات الشرعية فقط». ثم استطرد يذكر موقف كل من الحكومة البريطانية والمجلس من مسألة قبول الهدايا والتحف يقول: «وستقتنع سموّه أيضًا بأنَّ قبول الهدايا من حلفائنا يخالف قواعدَ حكومتنا ولوائحها وتوجيهاتها، وأنَّ علاماتِ التحيّاتِ وشواهدها ليست ضرورية لإثبات حُسن نيّة سموّه للمجلس، وأنَّ العلاقة والصداقة بين الحكومتيْن لا تشتدّ ولا تمتدّ بإرسال الهدايا، بل بالعكس من ذلك، فإنَّ تحاشيه لاختيار مثل هذا النهج في المستقبل يُقدّم لنا برهانًا قويًّا على اهتمامه برغباتنا واحترامها»[57].

ولعلَّ خطابات الوكيل السياسيّ في زنجبار وحكومة بومباي كان له مفعولٌ قويٌّ في إثارة حفيظة مجلس الإدارة في لندن، وعلى نحوٍ أشدّ ضدّ سياساتِ السَّيد سعيد وتوجيهه نحو اختيار مسار ترضى به الحكومة البريطانية كلّ الرضا. وقد علَّق أحدُ الباحثين على هذا التصرُّف غير الحكيم قائلًا: «لقد افتقر تصرُّف السَّيد سعيد إلى التدبُّر وبُعد النَّظر حينما أرسلَ تلك الخيلَ المهداة إلى رئيس شركة الهند الشرقيّة مع كوجان؛ الأمر الذي دفع حكومةَ بومباي إلى توبيخه بعباراتٍ غير مُهذّبة، مُعتبرةً تصرُّفه هذا مُجانبًا للصَّواب»[58].

وهكذا لم تنجح محاولاتُ السَّيد سعيد ولا هداياه الثمينة في تغيُّر موقف الحكومة البريطانية من الحظر الكامل على تجارة الرقيق، ولا ريبَ أنَّ الدافع وراء إرسال تلك الخيل هدية إلى الملكة وإلى رئيس مجلس الإدارة وعلى نحوٍ مُستمرّ هو تيسير المصالح وتذليل المصاعب، على أنها كانت وسيلة من وسائل السياسة المغلّفة بالودِّ والتحبُّب، لكنها لم تأتِ بأيٍّ نتيجة مرجوّة في نهاية المطاف.

1. بلغ عدد الخيل العربية التي قدمت من عمان لممثلي الحكومة الفرنسية نحوًا من ثلاث وأربعين فرسًا. راجع حمد بن سالم بن راشد البلوشي، تاريخ الخيل العربية في سلطنة عمان، محاضرة مقدمة لمؤتمر الجواد العربي، مسقط 2009، ص 9-8.
2. Rudolph Saeed Ruete, Said Bin Sultan (1791-1856): Ruler of Oman and Zanzibar, His Place in the History of Arabia and East Africa, (London: Alexander-Ouseley, Limited, 1929), p. 21.
3. لمزيد من التفصيل راجع سلطان بن محمد القاسمي، الوثائق العربية العمانية في مراكز الأرشيف الفرنسية، (الشارقة: منشورات القاسمي، 2010م)، ص 51-50؛ 117-116؛ 165-163؛ 175-171؛ 223-219؛ 229-225؛ 242-237.
4. اُعتمدتْ تلك الاتفاقية في شكلها النهائي في 4 فبراير عام 1864م. لمعرفة بنود تلك الاتفاقية راجع: مختارات من وثائق حكومة بومباي، ترجمة عربية: عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، (الدوحة: مركز حسن بن محمد للدراسات التاريخية، 2017م)، ص 237-234.
5. Rudolph Saeed Ruete, op. cit., p. 111.
6. اسمه الكامل كارل ڤرنيهطوان تشارلز أوراس ڤرنيه (Antoine Charles Horace Vernet) المتوفى 1835م، اشتهر بفروسيته وانصرافه إلى تصوير الخيل ومشاهد الصيد والمعارك الحربية التي برع في رسمها، ضمن تكوينات متنوعة تزخر بالخيل والعربات والفرسان، لذلك كان من أشهر رسامي الوثائق الحربية في جيش نابليون بونابرت. راجع ترجمته في: "Vernet s.v. Antoine Charles Horace Vernet", Encyclopædia Britannica, ed. Chisholm, Hugh, (Cambridge: (Cambridge University Press, 1911), Vol. 27, p. 1030.
7. Xavier Beguin Billecocq; François Bellec, Oman vu par des artistes français (du XVIIe au XXe siècle, (Paris: Relations Internationales & Culture, 1995).
8. Edmund Roberts, Embassy to the Eastern Courts of Cochin-China, Siam and Muscat in the U.S. Sloop of War Peacock during the years 1832-1834, (New York: Harper & Brothers, 1837), p. 359.
9. Ibid, p. 430.
10. للتفصيل راجع هرمان فردريك أيلتس، سلطانة في نيويورك: أولى رحلات الأسطول العماني لأمريكا عام 1840م، ترجمة: محمد أمين عبد الله، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 1436هـ/2015م)، ص 57-56، 63-60.
11. راجع مراسلات سلاطين زنجبار، جمع وتحقيق: سلطان بن محمد القاسمي، (الشارقة: منشورات القاسمي، 1433هـ/2012م)، ص 69.
12. راجع: مراسلات سلاطين زنجبار، ص 215. ويشكر النقيب همرتن في رسالة أخرى بعث بها في 15 فبراير عام 1844م على وصول البقرتين اللتيْن أهداهما إليه السَّيد سعيد. راجع المصدر السابق نفسه، ص 211.
13. Rudolph Saeed Ruete, op. cit., p. 155.
14. قارن نصوص تلك المراسلات والخطابات المتشابهة أشد التشابه في الملفين الآتيين، علمًا بأن الخطاب الوحيد الموجود في الملف الثاني أرسله المجلس إلى حكومة بومباي غيرُ مدرج في الملف الأول: 'Reporting the intention of the Imaum of Muscat to send by Cap Cogan two Horses as a present to the Chairman of the Hon'ble the Court of Directors', IOR/F/4/2066/94854, pp. 1-34; 'Muscat. Horses presented by the Imaum of – to the Chairman of the Honble the Court of Directors.', IOR/F/4/2145/102615, pp. 1-19.
15. Chhaya R. Goswami, "The Slave Trade at Zanzibar and the role of Kutchis," Proceedings of the Indian History Congress , Vol. 64 (2003), pp. 1281-1294.
16. John Gray, History of Zanzibar from the Middle Ages to 1856, (London: Oxford University Press, 1962), p. 232.
17. G. S. Graham, Great Britain in the Indian Ocean, a Study in Maritime Enterprise, 1810-1850, (Oxford: The Clarendon Press, 1967), p. 198.
18. Abd al-Sharif, Slaves, spices, & ivory in Zanzibar: integration of an East African commercial empire into the world economy, 1770-1873, (London: James Currey, 1987), p. 47.
19. Padma Srinivasan, "Slavery in Mauritius and Moresby Treaty of 1822," Proceedings of the Indian History Congress, Vol. 60, (1999), pp. 1014-1016.
20. R. W. Beachey, A Collection of documents on the slave trade of eastern Africa, (London: R. Collings, 1976), p. 43.
21. راجع: عيسى بن ناصر بن عيسى الإسماعيلي، زنجبار: التكالب الاستعماري وتجارة الرق، ترجمة: مبارك بن خلفان بن ناجم الصباحي، (دبي: دار الغرير للطباعة والنشر، 2012م)، ص 32-31.
22. Selections from the Records of the Bombay Government, (Bombay: Bombay Education Society's Press, 1856), pp. 243-244.
23. Beachey, op. cit., pp. 103-107; Selection, op. cit., pp. 243-244.
24. Beachey, op. cit., pp. 107-108.
25. Selection, op. cit., p. 276; James Raymond Wellsted, Travels to the City of the Caliphs along the shores of the Persian Gulf and the Mediterranean, (London: Henry Colburn Publisher, 1840), Vol. I, p. 52.
26. 'Arabian Horses sent as a present to Her Majesty the Queen of England by the Imaum of Muscat', No. 1272 of 1839, IOR/F/4/1831/75820, pp. 1-3.
27. No. 1272 of 1839, IOR/F/4/1831/75820, p. 5.
28. IOR/F/4/1831/75820, p. 7.
29. IOR/F/4/1831/75820, p. 1.
30. IOR/F/4/1831/75820, p. 3.
31. The Forwarding of a Letter Regarding the Horses Sent by the Imaum of Muscat to Queen Victoria', IOR/L/PS/5/388, pp. 6-8.
32. I.O.R. R/15/1/82, Political Department, Treaty of Commerce between Her Majesty, the Queen of the United Kingdom of Great Britain and Ireland, and Highness Sultan Seid Syeed Bin Sultan, Imam of Muscat, 24 Sept., 1839, pp. 189-207; 'Exchange of Ratifications of Captain Cogan's Treaty', IOR/F/4/1881/79881, pp. 21-33.
33. George N. Curzon, Persia and the Persian Question, (London: Longman, Green, and Co, 1892), Vol., II, p. 437.
34. The Letters of Queen Victoria, ed. Arthur Christopher etc, (London: John Murray, 1908), Vol. I, p. 406.
35. James Raymond Wellsted, Travels to the City of the Caliphs along the shores of the Persian Gulf and the Mediterranean, (London: Henry Colburn Publisher, 1840), Vol. I, pp. 52-53.
36. للاستزادة راجع رسالة مطولة أرسلها لورد أبردين في 31 ديسمبر عام 1844م إلى السَّيد سعيد، وضّح فيها موقف الحكومة البريطانية من حظر تجارة الرقيق كليًّا وعدم قبول مقترحات السَّيد سعيد بخصوص دفع التعويضات له نظير الخسائر الفادحة التي تكبدها بسبب الحظر الكلي لتجارة الرقيق، راجع مراسلات سلاطين زنجبار، ص 231، 233، 235، 237.
37. 'Indian navy fund family register, 1830-1925', L/AG/23/18/2-3, p. 9.
38. Beatrice Nicolini, "Sayyid Said bin Sultan al bu Sa'id of Oman (1791-1856) and His Relationship with Europe,", ARAM Periodical. 11 (11–12), (1999-2000), pp. 178, 179-180.
39. راجع مراسلات سلاطين زنجبار، ص 227-225.
40. 'Reporting the intention of the Imaum of Muscat to send by Cap Cogan two Horses as a present to the Chairman of the Hon'ble the Court of Directors', IOR/F/4/2066/94854, pp. 9-10.
41. IOR/F/4/2066/94854, pp. 10-11.
42. IOR/F/4/2066/94854, pp. 11-12.
43. IOR/F/4/2066/94854, pp. 13-15.
44. IOR/F/4/2066/94854, p. 2.
45. IOR/F/4/2066/94854, pp. 2-3.
46. IOR/F/4/2066/94854, pp. 3-4.
47. IOR/F/4/2066/94854, pp. 17-18, 19.
48. IOR/F/4/2066/94854, pp. 21-22.
49. IOR/F/4/2066/94854, pp. 5, 24.
50. IOR/F/4/2066/94854, pp. 25-26.
51. IOR/F/4/2066/94854, pp. 27-28.
52. IOR/F/4/2066/94854, pp. 29-30.
53. IOR/F/4/2066/94854, p. 30.
54. IOR/F/4/2066/94854, pp. 31-32.
55. IOR/F/4/2066/94854, pp. 33-34.
56. 'Horses presented by the Imam of Muscat to the Chairman of the Hon'ble the Court of Directors.' IOR/F/4/2145/102615, p. 3.
57. IOR/F/4/2145/102615, pp. 3-5.
58. Robert Nunez Lyne, Zanzibar in Contemporary Times, (New York: Negro Universities Press, 1969), p. 40.